دلالة المقام لمصطلح (الحال النحوي)

عند الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير

مقام تشديد النهي إنموذجاً

. . . . . .

م.د عدنان قحطان عبدالله – أ. م. د حبيب أحمد علي

كلية التربية للعلوم الإنسانية– جامعة تكريت – قسم اللغة العربية

المقدمة

لا ريب أن ما ينطوي عليه القرآن من دلالات وجمل وتراكيب وعبارات آياته، هو في الحقيقة تابع من دلالات مفرداته وتراكيبه، وقد أشبع المفسرون قديمًا وحديثًا تراكيب القرآن بحثًا وتحليلًا، فدرسوا حقيقته ومجازه، وتشبيهاته واستعاراته وكناياته، بغية الوصول إلى إعجازه، وفَهم معناه، ذلك أن الدلالة في الدرس النحوي هي العنصر الروحي في الدراسات القرآنية، فالعناصر النحوية وحدها لا تسهم في الوصول إلى المعنى بمعزل عن العناصر الدلالية، فكما يمد العنصر النحوي العنصر الدلالي بالمعنى الاساسي في الجملة، يمد العنصرُ الدلالي العنصرَ النحوي كذلك ببعض الجوانب التي تساهم وتساعد على فهم المعنى.

وتعد نظرية السِّياق بشقيها السِّياق اللغوي أو الداخلي، والسِّياق غير اللغوي، أو ما يعرف بسياق الحال أو السِّياق الاجتماعي، فرع من فروع علم الدلالة والدراسات اللسانية الحديثة، وهي في الوقت نفسه منهجًا مأمونًا لفهم نصوص القرآن الكريم، وفهم أسراره البيانية، يقول الدكتور نهاد الموسى " إنَّ أبرز الملامح في النظر البلاغي أنه قام على اشتراط الكلام لمقتضى الحال واستشعر المقولة السائرة " لكل مقام مقال " ورصد على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السيَّاق، سياق الحال خاصة، وهي حال المتكلم، والمخاطب، وسَائر ما يَأتلف منه (المقام) ورصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام، وتأليفه على هيئات في القول تتنوع وفقًا لتنوع المقامات"[١].

وتتضح عناية اللغويين والبلاغيين بل وحتى المفسرين بالسيِّاق وذلك من خلال عباراتهم الشهيرة " لكل مقام مقال" أو " كل كلمة مع صاحبتها مقام"[٢]، فالمقام أو الحال يرادف أحدهما الآخر في أغلب استعمالاته، وكل من المصطلحين يقصد بهما: مجموعة الاعتبارات والظروف والملابسات التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها، أو ينبغي أن يكون في ذلك النشاط من خارجة بحيث لا تحدد دلالة الكلام أو تتجلى مزاياه إلَّا في ظلها وفي ضوء ارتباطه بها[٣]

ومن هنا جاءت فكرة دراس مقامات الحال (الحال النحوي) في القرآن الكريم، فهي محاولة جديدة لوضع لبنة من لبنات الدرس الدلالي، بالاعتماد على التقعيدات النحوية،

وعلى هذا جاءت هذه الدراسة لتقف على أهم أغراض الحال (الحال النحوي) وسماته ومناسبة مجيئه في السِّياق القرآني، وقد قسمت البحث على مقدمة وثلاثة مباحث فخاتمة.

المبحث الأول: الحال المفردة.

أولًا : صفًا في قوله تعالى ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:٤٨].

فقد ذكر الطاهر بن عاشور أن "صفًا" انتصب على الحال من واو "عرضوا"، وتلك الحالة إيذان بأنهم أحضروا بحالة الجناة الذين لا يخفى منهم أحدٌ إيقاعًا للرعب في قلوبهم"[٤]

وحتى نزداد إحاطة وفهمًا لهذا الكلام لا بد أن نضعه في السّياق العام للآية، مراعين في ذلك العناصر السّياقية والقرائن النصية، فمما لا شكَّ فيه أنَّ السّياق يلقي بظلال المهابة والخوف الشديدين من عرصات يوم القيامة، وهو يوم لا يحسد الكافر عليه، فتصوير هذا اليوم وما فيه من التهويل الشديد والذي يدعوا الإنسان أن يتخلى عن كل قرين وصاحب وخليل، وإن الناظر في سِياق الآية يجد كثيرًا من تلك القرائن والعلاقات السّياقية، بل وحتى تنوعها، فمن تلك القرائن، إنَّ الآية شبهت حال المشركين بحال جند عُرِضوا على السّلطان ليأمر فيهم ما يأمر[٥].

بل ومما يزيد الأمر تهويلًا وتعظيمًا علمهم بذلك الموقف، وإنَّ حشرهم وعرضهم لم يكن بالوقت القصير، فكلما زاد وقوفهم بين يدي مولاهم، زاد الأمر تهويلًا وتفظيعًا، وهذا يدل على شدة وهول هذا المقام، ولشدة هذا الموقف جاء نظم الآية مغايرًا في الأسلوب بين صيغ الماضي والمضارع في قوله تعالى ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**﴾**[الكهف:٤٧]**، إذ جاءا مضارعين، وبين قوله ﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾**[الكهف:٤٧]**، ماضيًا، للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك (موعدًا) وقتًا لإنجاز ما وعدتهم على ألسنة الأنبياء من البعث إلى النشور[٦]، بل وفيه ملمحًا بيانيًا آخرًا إذ الغاية من ذلك أن يوقع التسيير في حالة حشرهم، ومعاينة هذا التسيير يدل على هول وشدة هذا الموقف، وهذا الموقف ناسب أن تأتي قراءة الجمهور بنون العظمة[٧] .

وكذلك في العدول عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة في قوله تعالى ﴿**عَلَى رَبِّكَ**﴾ دون أن يقال "علينا" لتضمن الإضافة تنويهًا بشأن المضاف إليه بأن في هذا العرض وما فيه من التهديد نصيبًا من الانتصار للمخاطب، إذ كذبوه حين أخبرهم وأنذرهم بالبعث[٨].

وتنصيصًا على ذلك فالخبر ﴿**لَقَدْ جِئْتُمُونَا**﴾، مستعمل في التهديد والتغليظ والتنديم على إنكارهم البعث[٩]، وفي قوله تعالى ﴿**كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ تعريض بخطئهم في إنكارهم البعث، لذلك شبهوا حين موتهم بالغائب، وشُبهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب[١٠]، والإضراب في الآية نفسها ﴿**بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا**﴾، فيه انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليظ إلى التصريح بالتغليظ في قالب الإنكار فالخبر مستعمل في التغليظ[١١]، وكل من دلالة التنديم والتعريض المستفادة من النصوص سلفًا تدل على شدة وهول دلالة الحال المفرد "صفًا" في الآية القرآنية.

ولما هالهم إثبات جميع الصغائر، بدؤوا بها، وصرحوا بالكبائر وإن كان إثبات الصغائر يفهمها، تأكيدًا لأنَّ المقام للتهويل وتعظيم التفجع[١٢].

بل وأكاد أجزم أنَّ الآية قد جاءت مناسبة للغرض، بل ومناسبة للآية بعدها، والتي لا تنفك عن مقام التهويل هي الأخرى، وذلك في قوله تعالى ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾**[الكهف:٤٩]**، مما ناسب ورود لفظ الإشفاق في هذا السيّاق نعيًا لحال المجرمين، ولشدة هذا الهول أن جمعهم الله سبحانه وتعالى صفًا واحدًا أو صفوفًا. حفاة عراة غرلًا لا ينظر أحدهم إلى الآخر لهول ذلك اليوم وشدده، فكل واحدٍ له شأن يغنيه عن الآخر.

وقد جاء سياق الحال يؤكد مقام التهويل هذا، ففي الحديث "يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفًا يسمعهم الداعي وينفذهم البصر"[١٣].

ومن خلال ما تقدم أرى أيضًا في هذا السّياق أنَّ ﴿صَفًّا﴾ انتصب على الحال لدلالة التحسر والندم على ما فاتهم من فعل الخيرات، إضافة لمقام التهويل، فلا يخلوا التهويل من تحسر وندم، وبهذا المعنى الأخير حسنت المقابلة بين حال المؤمنين وما معهم من باقيات

صالحات قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف:٤٦]، وبين تصوير مجيء حال المشركين في هذه الآية.

بل وحَسُن مقابلةُ الحالِ في آية سورة الكهف مع الحالَ في آية سورة الأنعام قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام: ٩٤]**. فـ﴿ فُرَادَى﴾ منصوب على الحال، وهما حالان مفردان، والحال في سورة الأنعام لا يخلوا من مقام التحسر والندم، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، فهو نص متكامل غير متناقض.

وكذلك حسنت المقابلة في سياق سورة الكهف بين ﴿**الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾، وبين عدم مغادرة ﴿**صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً**﴾ لحال المجرمين.

فبين الحالين "حال المؤمنين" وما معهم من باقيات صالحات، وبين حال إحضار "المجرمين" صفًا فرادى لا ناصر لهم ولا معين، وقد جيء بصغائر إجرامهم قبل كبائرهم تفاوت كبير.

وبين الآيتين من المناسبة ارتباط وثيق ومناسبة ترتيبية جاء بها النظم الحكيم.

وهذا يدعوني إلى القول أن في ذكر الحال النحوي ﴿ صَفًّا﴾ قد اجتمعت فيه دلالتان، التهويل والتحسر، وإنما رجحت هذا القول لما توافرت لديَّ من دلالات وقرائن سياقية.

ثانيًا:

قول تعالى: ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[الفتح:٢٥] قال الطاهر بن عاشور:" والمعكوف: اسم مفعول عكفه، إذا ألزمه المكث في المكان، يقال: عكفه فعكف فيستعمل قاصرًا ومتعديًا،... وفائدة ذكر هذا الحال، التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها، حيث اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية، فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة[١٤]".

ومعنى أن يبلغ محله أي: يبلغ محل نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي صار إليه حلَّ نحره [١٥].

والمصدر المؤول من "أن يبلغ محله" في محل جر بحرف محذوف متعلق بيصدوكم، أي: يصدوكم من بلوغ الهدي محله، أو متعلق ب"معكوفًا" والتقدير محبوسًا أن يبلغ محله.

وإنما جاءت الحال هنا للتشنيع، وذلك أن أهل مكة يعرفون مكانة البيت عند العرب، وافتخارهم بذلك، ولا سيَّما وهم عُمَّارُ البيت وسدنته، حتى كان شأن العرب قبل الإسلام يستعظمون القتال في الأشهر الحرم، وحتى أصحاب الثارات يتجمعون في ظلال هذه الحرمة، ويلقى الرجل قاتل أخيه وأبيه، فلا يرفع في وجهه سيفًا، ولا يصده ذلك عن البيت الحرام، أما هذا الفعل الذي جاءت به قريش آنذاك، ما كان لهم أن يفعلوه، وهم بذلك خالفوا عاداتهم ودين آبائهم وهي سُبَّةٌ لهم.

ولمكانة البيت وحرمته أن ساق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معه سبعين بدنة، وقيل ثمانين[١٦]، فما كان لهم أن يصدوهم عن المسجد الحرام، ولهذا الغرض جاءت الآية مستأنفة انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين، وما هيَّأ لهم من أسباب النصر إلى تعيير المشركين بالمذمة التي أتوا بها، وهي: صد المسلمين عن المسجد الحرام، وصد الهدْيَ أن يبلغَ أهله، فإنها سُبَّةٌ لهم بين العرب، وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وهم يزعمون أنهم أهل حرم الله زواره ومعظميه، وقد كان من عاداتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان، فلا عذر لهم في منع المسلمين، ولكنهم حملتهم عليه الحمية[١٧].

وللسبب نفسه افتتح بضمير الغيبة العائد إلى الذين كفروا من قوله تعالى ﴿**وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ**﴾**[الفتح: ٢٢]**، والمقصود بالافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر[١٨]، والمقصود من الصلة هو جملة ﴿**صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ وذكر ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ إدماج للنداء عليهم بوصف الكفر، ولهذا الإدماج نكتة أيضا. وهي أن وصف الذين كفروا بمنزلة الجنس صار الموصول في قوة المعرف بلام الجنس فتفيد جملة ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ قصر جنس الكفر على هذا الضمير لقصد المبالغة لكمالهم في الكفر بصدهم المعتمرين عن المسجد الحرام وصد الهدي عن أن يبلغ محله١٩.

ومما يؤيد هذا أن الآية جاءت مناسبة لما بعدها وهو قول الحق تبارك وتعالى ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**﴾**[الفتح:٢٦]**، أي صدوكم صدًا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلا حمية الجاهلية، وإلا فإن المؤمنين جاءوا مسالمين معظمين حرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم فليس من الرشد أن يمنعوا عن العمرة ولكن حمية الجاهلية غطت على عقولهم فصمموا على منع المسلمين، فكان تعليق هذا الظرف بفعل {وصدوكم} مشعرًا بتعليل الصد بكونه حمية الجاهلية ليفيد أن الحمية متمكنة منهم تظهر منها آثارها فمنها الصد عن المسجد الحرام[٢٠]،

بيد أن النظم القرآني تتعدد فيه الأوجه الإعرابية، الأمر الذي يدعوا إلى تعدد المعنى الدلالي وهو ضرب من ضروب الإعجاز القرآني[٢١]، ولذلك أرى في الوقت نفسه أن يتعدد معنى الحال في هذه الآية، فالحال هنا يحتمل وجهًا آخر غير مقام التشنيع، الذي ذكره الطاهر بن عاشور، ألا وهو مقام المِنَّةِ، بل عظيم المِنَّةِ على المسلمين، إذ كَفَّ الله عنهم أيدي المشركين، وردَّ عن المسلمين عاتية المشركين، وحالهم أنهم جاءوا مسالمين معتمرين، عاكفي هداياهم، مغمدين سيوفهم.

ومّما يدل على هذا المقام، وأعني به مقام المِنَةِ في هذا السّياق، أنَّ سورة الفتح لها وثيق ارتباط بسورة (محمد) صلى الله عليه وسلم، فلمّا أمروا بقتال عدوهم في قوله تعالى ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾**[محمد:٤]**الآية، وفي قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾**[محمد:٧]**، أشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق، واستدعى ذلك إلى تشوق النفوس إلى حال العاقبة فقال تعالى ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**﴾**[الفتح:١]**، فعرّف الله تعالى نبيَه بعظيم صنعه عليه، وأتبع ذلك ببشارة المؤمنين العامة[٢٢]،فأعلمهم الله بالفتح، وجعل هذا الفتح منسوبًا إليه لا إلى أحدٍ غيره، وفي ذلك مِنَةٌ، ومن ذلك أن كفَّ الله أيدي المشركين عن المسلمين، بعد أن جعلوا الحمية في نفوسهم قال تعالى ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ**

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الفتح:٢٦]، ففي لفظ جعل دلالة على شدة تمكن هذه الحمية في قلوب المشركين، وفي مقابل هذه الحمية أن أنزل الله السكينة على المؤمنين، ولذلك فنظم الآية يبيِّن لنا أن كلَ فريق قد تمكن ذلك في نفسه، وتعلق به، لأنهم جعلوا في قلوبهم الحمية لا يرجعون إلى الاستسلام، ولا الانقياد له، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد في الجهاد، ثم حفظ الله المؤمنين من ذلك الجعل، وكف أيدي المشركين عنهم فكان سياق المِنَّةِ في هذا المقام[٢٣]، ثُمَّ أنزال السكينةِ قد تكرر قبل العكوف أيضًا فقال تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الفتح:٤]**، فبتكرار أنزال السكينة تتعدد المنن على المسلمين.

ومن منِّه تبارك وتعالى أن كان بمكة قوم من المسلمين مختلطين بالمشركين غير متميزين عنهم، ولا معروفي الأماكن فقال تعالى ﴿**وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح:٢٥]**، أي: ولولا كراهة أن يهلكوا أناساً مؤمنين، بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين لهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة[٢٤]، فكان من رحمة الله ومنه وكرمه، أن كف عنهم القتال، وممّا زاد في ذكر هذه المِنَّةِ على المسلمين، أن جعل نصر المشركين عليهم مستبعدًا، ولذلك جاء التعبير بأداة (ثُمَّ) أي: بعد طول الزمان وكثرة الأعوان[٢٥].

وهذا يدعوا إلى القول أن الحال (معكوفًا) في الآية يحتمل معنيين.

الأول: مقام التشنيع وذلك للقرائن التي ذكرها الطاهر بن عاشور.

والثاني: مقام المنة، وعلى هذا فالفتنة عظيمة والأمر جد خطير، ورغم الخطورة، الهدي معكوفًا أن يبلغ محله، والقوم وهم المسلمون مشغولون برد عادية المشركين عنهم، وعلى كلا الاحتمالين ففي مجيء الحال ومناسبته في هذا السياق درسًا تربويًا، وهو تعظيم شعائر الله في السلم والحرب على حد سواء

المبحث الثاني: الحال الجملة

أولًا: الجملة الإسمية.

قال تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال:٢٧].

يحذر الله سبحانه وتعالى من الخيانة في هذه الآية، فجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، مبتدأ وخبر في موضع حال[٢٦]، أي: وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله[٢٧]، إذ الخيانة بالشيء بعد العلم به من أعظم الذنوب، فكان ذلك أبعد لكم من الوقوع في الخيانة، لأن العالم بما يترتب على الذنب يكون أبعد الناس عنه[٢٨].

وفي سياق هذه الآية ذكر الطاهر بن عاشور أنَّ الغرض من الجملة الحالية ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هو لتشديد النهي، أو لتشنيع المنهي عنه، لأن النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنه قبيح يكون أشد، ولأن القبيح في حال علم فاعله بقبحه يكون أشنع[٢٩]، فالحال هنا بمنزلة الصفة الكاشفة في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾[المؤمنون:١١٧]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:٢٢]، أي: إنَّ الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو[٣٠]، لأن الفعل (تعلمون) منزلًا منزلة اللازم، فلا يقدر مفعول، فيكون معناه (وأنتم ذو علم) أي: أنتم ذو معرفة بحقائق الأشياء، علماء لا تجهلون الفرق بين المحاسن والقبائح[٣١].

ومما يؤيد هذا المعنى ما رواه الواحدي وغيره في سبب نزول الآية، فهي نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك أنه لما حاصر المسلمون بني قريظة، سألت بنو قريظة الصلح، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" تنزلون على حكم سعد بن معاذ"، فأبوا وقالوا: " أرسل إلينا أبا لبابة "، فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم أبا لبابة، وكان ولده وعياله وماله عندهم، فلما جاءهم قالوا له :" ما ترى أننزل على حكم سعد؟ " فأشار أبو لبابة بيده على حلقه: إنه الذبح، إذ كان ماله وولده عندهم، ثمَّ فطن أنه خان الله ورسوله[٣٢]، ومما يقوي ذلك أن الآية جاءت مناسبة للغرض المسوق، وللآية التي تليها، إذ ذكر فيها فتنة الأموال والأولاد قال تعالى:﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال:٢٨]، فلما كان الداعي على الإقدام على تلك الخيانة هو حب الأموال

والأولاد، نبه تعالى ذكره على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار من ذلك[٣٣]، ولا سيّما إذا كانت تلك المفاضلة بين متاع الدنيا الزائل، ومتاع الآخرة الدائم، ولتلك المناسبة صُدِرت الجملة بقوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا﴾، للاهتمام، وهو تنبيه على الحذر من الخيانة، التي يحمل عليها المرء حب المال، وعطف الأولاد لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة، وكذلك جيء في الإخبار عن كون الأموال والأولاد فتنة، وبطريق القصر لقصد المبالغة في إثبات أنهم فتنة[٣٤].

وكذلك جاءت الآية مناسبة لما قبلها قال تعالى:﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[الأنفال:٢٦]، فلمّا ذكَّرهم أنه رزقهم من الطيبات هنا، وأعظم الطيبات أن مَنَّ الله عليهم بالإسلام، منعهم هنا من الخيانة، ولذلك صح أن يكون المعنى" وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تميزكم بين الصحيح والفاسد بدقائق الأمور، وغوامض الأحوال.. وأنتم من أهل العلم؟ والتوبيخ فيه آكد[٣٥]" .

وكذلك جاء الحال للتوبيخ أو لتشديد النهي في قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾**[البقرة:٢٢]**، أي: إذا تأملتم أدنى تأمل علمتم[٣٦]، والمراد بالعلم هنا العقل التام،.. وقد جعلت هذه الحال محط النهي والنفي تمليحًا في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة، فإنه أثبت لهم علمًا ورجاحة الرأي ليثير همتهم، ويلفت أبصارهم، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو نفي ذلك مع تلبسهم به وجعله لا يجتمع مع العلم، توبيخًا لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم، وأضاعوا من سلامة مداركهم وهو منزع تهذيبي عظيم[٣٧].

وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا الذي يستدعيه عموم الخطاب[٣٨].

فدلالة الحال في هذا السياق جاءت لتشديد النهي أو لتشنيع النهي من الخيانة، بعد حصول العلم التام، وهذا حسبما تقرر من معطيات القرائن السياقية في الآية، وهو ما ذهب إليه الطاهر بن عاشور[٣٩].

ثانيًا: الجملة الفعلية.

قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٢٧].

المقصود من سرد قصص الأنبياء هو الاعتبار بها، ولا سيّما ما وقع بين آدم عليه السلام وبين الشيطان من شديد العداوة، مقتضيًا التحذير من الشيطان.

ولما كان المقام في قصة آدم والشيطان خطرًا، والتخلص عسرًا، أشار إلى ذلك بالتأكيد وبيان ما سلط الشيطان به من المكائد الخفية ليعلم الناجي أنه نجا بمحض التوفيق[٤٠].فكان المقصود من هذا الكلام تأكيد التحذير لبني آدم، لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره إلى هذا الحد، فكيف يكون حال آحاد الخلق؟[٤١].

وفي ذلك تنبه الطاهر بن عاشور إلى دلالة "الحال النحوي" في هذه الآية، وأن الغرض منه تفظيع هيئة ذلك النزع فقال: "وجملة : ينزع عنهما لباسهما في موضع الحال المقارنة من الضّمير المستتر في أخرج، أو من أبويكم، والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سَوْآتهما، لأنّ انكشاف السوءة من أعظم الفظائع في متعارف النّاس، والتّعبير عمّا مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصّورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين[٤٢]".

ولأجل ذلك أكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي هذا تصوير بديع إذ جعل الله سبحانه وتعالى هذه العداوة من جهة مَن لا نراهم، وهم يروننا[٤٣]، ونسب الله سبحانه وتعالى النزع إلى إبليس لأنه سببه.

وبذلك حسن أن يأتي الحال في هذا السّياق للتهويل أو التفظيع، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرون كان أشد وأخوف[٤٤].

فجملة ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ﴾، شديدة الارتباط بمقام هذا الحال، وهي واقعة موقع التعليل للنهي عن الافتنان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده، لأنّ شأن الحَذِرِ أن يَرصد الشّيء المخوف بنظره ليحترس منه إذا رأى بَوادره، فأخبر الله النّاس بأنّ الشّياطين تَرى البشر، وأنّ البشر لا يرونها،

إظهاراً للتّفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النّاس منهم، فإنّ جانب كيدهم قويّ متمكّن وجانب حذر النّاس منهم ضعيف، لأنّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري٤٥.

ولما كانت هذه العداوة متأصلة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، ناسب هذا الحال أن يأتيَ بصيغة الجملة الفعلية، ليدل على الاستمرار والتجدد في تزيين وإغواء الشياطين لبني آدم، بل وناسب أن يأتي هذا الحال بصيغة المضارع دون غيرها من الصيغ وذلك لاستحضار الصورة العجيبة من تمكنه من أن يتركهما عريانين.

وقال تعالى: ﴿**وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ**﴾**[الشورى:٤٥]**.

قال الطاهر بن عاشور في بيان دلالة "الحال النحوي" في هذا السّياق: "وجملة ينظرون من طرف خفي في موضع الحال من ضمير خاشعين، لأن النظر من طرف خفيّ حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة، وفي قريب من هذا المعنى قول النابغة يصف سبايا :

يَنْظُرْن شزْراً إلى مَن جاءَ عن عُرُض بأوْجُهٍ منكِراتتِ الرِقّ أحْرَارِ

وقول جرير :

فغضَّ الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا[٤٦].

ومما يزيد هذا الموقف تهويلًا، أنهم يبصرون النار دون الإخبار عنها، وقد دلت الجملة الفعلية على الاستمرار والتجدد، ومما لا ريب فيه، إن المجرم إذا كان ينظر عقوبته يزيد خوفه من تلك العقوبة، فكيف إذا شاهد حالَ ما يصير إليه رأي العين، فلا شكَّ أن الأمر أشد تهويلًا وتفظيعًا، وفي هذا السياق ذكر الله سبحانه وتعالى أن المجرمين ينظرون إلى العذاب، إذ ناسب أن يكون هذا النظر من طرف خفي، فقد أثبت الله سبحانه وتعالى رؤيتهم العذاب، وأثبت دنوهم من محله، وبيّن حالهم في ذلك الدنو، وعبّرَ بصيغة المضارع ﴿يُعْرَضُونَ﴾ أي: يجدد عرضهم ويكرر، ليعلموا أنّها مصيرهم، وتكرر عرضهم في طول الوقت أو الموقف مع ما هم فيه من تلك الأهوال بمقاساة ما هم عليهم من الأحمال الثقال، حال كونهم خاشعين، أي: في غاية الضعة والإلقاء باليد خشوعًا هو ثابت لهم، بل وقيد هذا الخشوع بقوله ﴿ مِنَ

الذُّلِّ﴾، ولما كان الذل ألوانًا صوره بأقبح صورة فقال معبرًا بلفظ النظر الذي هو مماسة البصر لظاهر المبصر " ينظرون" أي: يبتدأ نظرهم المتكرر "من طرف" أي: تحريك للأجفان "خفي" يعرف فيه الذل[٤٧]، وهذا هو سر اختيار "من" في هذا السّياق إذ جعله لابتداء النظر إلى انتهاء تلك المحاكمة العظيمة مما زاد من تهويل وتعظيم هذا اليوم وطوله على المجرمين.

وحذف مفعول ﴿ينظرون﴾ للتعميم أي: ينظرون العذاب، وينظرون أهوال الحشر، وينظرون نعيم المؤمنين من طرف خفيّ[٤٨].

وفي هذا السّياق حسنت مقابلة حال المشركين مع حال المؤمنين قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ**﴾، إذ كانوا مطمئنين من تلك الأهوال.

بيد أن تكرار الفعل ترى في هذه الآية والآية قبلها يدل على الاهتمام بهذا الموقف قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾[الشورى:٤٤]،

بل وقد تمنى الظالمون أن يجدوا مخرجًا مما هم فيه، بصيغة التمني الذي يدل على الاستحالة، دون صيغة الرجاء، لمزيد اهتمام بهذا الموقف، وهذا كله ناسب جملة ﴿ رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه، فالماضي مستعار للاستقبال تشبيهًا للمستقبل بالماضي في التحقيق.

وما ذكرناه ينطبق سلفًا عل قوله تعالى:﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب:١٩]، فالحال في قوله تعالى:﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جاءت كذلك للتهويل قال الطاهر بن عاشور: " وَنَظَرُهُمْ إِلَيْهِ نظر المتفرس فِيمَا ذَا يَصْنَعُ وَلِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ: أَلَسْنَا قَدْ قُلْنَا لَكُمْ إِنَّكُمْ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِقِتَالِ الْأَحْزَابِ فَارْجِعُوا، وَهُمْ يَرَوْنَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ حِينَ يُحَذِّرُونَهُ قِتَالَ الْأَحْزَابِ، وَلِذَلِكَ خَصَّ نَظَرَهُمْ بِأَنَّهُ لِلنَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَقُلْ: يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ. وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِيَدُلَّ عَلَى تَكَرُّرِ هَذَا النَّظَرِ وَتَجَدُّدِهِ.

وَجُمْلَةُ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يَنْظُرُونَ لِتَصْوِيرِ هَيْئَةِ نَظَرِهِمْ نَظَرَ الْخَائِفِ الْمَذْعُورِ الَّذِي يُحْدِقُ بِعَيْنَيْهِ إِلَى جِهَاتٍ يَحْذَرُ أَنْ تَأْتِيَهُ الْمَصَائِبُ مِنْ إِحْدَاهَا[٤٩]

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧]

جاء الحال النحوي في هذا السِّياق يدل على التفظيع والتهويل، قال الطاهر بن عاشور: "وجملة يضربون وجوههم وأدبارهم حال من الملائكة، والمقصود من هذه الحال: وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي قدرها الله لهم، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم، أي يضربون وجوههم التي وَقَوْهَا من ضرب السيف حين فرُّوا من الجهاد، فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال كقول الشاعر

نعرّض للسيوف إذا التقينا وجوهاً لا تُعرض للنظام

ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا ، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم[٥٠].

إن المقام هنا مقام تهويل وتفظيع، وهو تصوير للحالة الشنيعة التي عليها المنافقون، سواءٌ أكانت تلك الحال في الحياة الدنيا عند محاربتهم للمسلمين، أو عندما تتوفاهم الملائكة، وهو الأرجح، والذي يشهد له السِّياق على خلاف بين المفسرين، ومهما يكن من أمر فإن هناك قرائن سياقية تدل على شدة هذا الحال بالنسبة للمنافقين، إذ جاء التعبير بالفعل المضارع ﴿يَضْرِبُونَ﴾، ليدل على الاستمرار في الضرب وتتابعه، وفي تقديم الوجه على الأدبار الذي هو أشرف جوارحهم، والذين ما جبنوا عن الحرب إلّا صيانة له، ولما كان حالهم في جبنهم، مقتضيًا لضرب الأقفاء، صُور بأبشع صورة فقال: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾، والتي ضربها أدلُ ما يكون على هوان المضروب وسفالته[٥١].

وممّا لا شكَّ فيه، أنَّ مناسبة آي القرآن الكريم بعضه ببعض تزيد من تماسك النص، بل والوحدة الموضوعية للسورة، فلهذا نجد أن لهذه الآية وثيق ارتباط بما قبلها، وهي تزيد من قوة تماسك النص القرآني، حتى كأنه جملة واحدة، وهي في الوقت نفسه تزيد من تمكن مقام التهويل لدلالة "الحال النحوي"، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا

مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[محمد:٢٥- ٢٦]، فما استحق هؤلاء المنافقين هذا المقام وما فيه من تهويل وهو لا سبب ما هم فيه الذي اردى بهم في هذا المقام لأنهم خانوا الله.

ومن كان له أدنى عقل لا يخون، إلّا إذا ظن أن خيانته تخفى، ليأمن عاقبتها، صور قباحة ما ارتكبوه، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[٥٢].

بل ويتتابع السياق وتنكشف القرائن فيما بعد حتى نرى مقام التهويل لسياق "الحال النحوي" يزداد تمكنًا، وذلك من خلال مناسبة الآية التي تليها فقال تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[محمد:٢٨]، فالألفاظ ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾، ﴿كَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، تدل على صعوبة حال مقام المنافقين مما تزيد تهويلًا وتفظيعًا لحالهم.

المبحث الثالث: الحال شبه الجملة.

قال تعالى:﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النحل:٢٥]، قال الطاهر بن عاشور: " وبغير علم في موضع الحال من ضمير النصب في يضلونهم، أي: يضلّون ناساً غير عالمين يحسبون إضلالهم نصحاً، والمقصود من هذا الحال تفظيع التضليل لا تقييده فإن التضليل لا يكون إلا عن عدم علم كُلاً أو بعضاً"[٥٣].

والحق في ذلك أن الناظر في سياق هذه الآية، يجد مقام التهويل واضحًا، وذلك من خلال مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها، وكذلك مناسبة القرائن اللفظية والحالية التي تساعد على إيضاح هذا المقام، ومن ذلك أن هؤلاء استحقوا حمل الأوزار لأنهم أنكروا أن تكون الآيات التي جاء بها رسول الله، لذلك جاءت جملة ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[النحل:٢٤]، منصوبًا لأنه لو نصب لاقتضى التقدير: أنزل اساطير الأولين، وإنما وقعت ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، خبر مبتدأ محذوف دلَّ عليه ما في السؤال والتقدير: هو أساطيرُ الأولين، أي: المسؤول عنه اساطير الأولين[٥٤].

فبسبب هذا الانكار استحقوا حمل الأوزار "كاملة" دون أن يخفف الله تعالى من عقابهم شيئًا، بل يوصل ذلك العقاب بكليته إليهم[٥٥]، وفيها التحقيق لوفائها وشدة ثقلها، ليسري ذلك إلى ارتباكهم في تبعاتها[٥٦]،وفي هاتين القرينتين مبالغة في التهويل.

ومن خلال دلالة الحال، والمعطيات السياقية حُددت دلالة "من" في قوله ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾، أنها ليست للتبعيض، لأنهم لو كانت للتبعيض لخفف عن الاتباع بعض أوزارهم، وذلك غير جائز لقوله عليه السلام: " من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" ولكنها للجنس[٥٧]، وكونها للجس تفيد التهويل لعظم الوزر المحمول.

وفي الحال النحوي ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أن هؤلاء إنما يقدمون على هذا الإضلال جهلًا منهم بما يستحقونه من العذاب على ذلك الإضلال، وهذا الحال في هذا المقام ناسب مجيء تذييل الآية بقوله ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، والمقصود بها المبالغة في الزجر، فأدخل همزة الإنكار على حرف النفي فصار إثباتًا على أبلغ وجه[٥٨]، وفائدة هذا التقييد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذي لبٍ، وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرًا[٥٩]، وفيه أيضًا زيادة تعيير لهم وذمهم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم[٦٠].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأحقاف:٢٥]، قال الطاهر بن عاشور: "بأمر ربها حال من ضمير تدمر، وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كلَّ شيء، أي: تدميرًا عجيبًا بسبب أمر ربها[٦١]".

وكذلك أرى أن في ذكر الحال هنا حتى لا يظن ظانٌ أن هذه الريح قد تهلك هودًا عليه السلام ومَن آمن معه، فهم في سلامة وأمن.

ومما لا يخفى على قارئ هذا البحث، أن ما تحمله الآيات في هذا السياق والآيات المجاورة لها من مناسبة تزيد من تمكن مقام التهويل مما يغني عن إعادة سرد القرائن هنا.

الخاتمة

١- للطاهر بن عاشور دور بارز في كشف دلالات ومقامات الحال النحوي، إذ أكثر من ذكرها قياسًا مع غيره من المفسرين.

٢- للسِّياق دور بارز في تحديد دلالة الحال النحوي.

٣-علم المناسبات علم جليل، وله من الأهمية بمكان، حيث يساعد هذا العلم على تحديد كثيرًا من الدلالات، وقد ساهم في بحثنا هذا على تحديد دلالة الحال النحوي.

٤-إنَّ النص القرآني نصٌ متكامل، فهو يكمل بعضه بعضًا، فما أجمل في موطن، فُصِل في موطن آخر.

٥- يعد السِّياق الثقافي " السِّياق الخارجي " أحد العناصر المهمة التي تساعد على تحديد الدلالة، وقد ساعد هذا السِّياق في تحديد دلالة الحال النحوي.

٦- تتنوع المقامات في السِّياق القرآني نتيجة تزاحم القرائن، وهذا واضح عندما رجحت دلالة التحسر والندم مع دلالة التهويل عند الحديث عن كلمة "صفًا"، وهذا ليس بدعًا من القول، فالتنوع الدلالي سمة من سمات القرآن الكريم، وهو في الوقت نفسه ضرب من ضروب الإعجاز.

٧- ساعد الحديث عن دلالة سياق الحال النحوي، تعيين العديد من الظواهر السياقية الأخرى كظاهرة المصاحبة اللغوية وقيمتها الدلالية.

الهوامش:

١ – نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث د نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان ١٩٨٠م، ص ٨٧.

٢ – ينظر: الإيضاح في علم البلاغة، الخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، تحقيق: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت – لبنان ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ج١/٤٣.

٣ – ينظر: علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم: د. حسن طبل، مكتبة الإيمان، المنصورة ط٣ ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، ص ١٢ – ١٣، وأثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن حجر العسقلاني: أحمد مصطفى أحمد الأسطل، رسالة ماجستير ، الجامعة الاسلامية غزة، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م ص ٥٧.

٤ – التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ج١٥/٧٩.

٥ – ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم : أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط١ ١٤٣١- ٢٠١٠م. ج٥/٢٥٤.

٦ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط٥ ج٢/٦٩٨.

٧ – ينظر البحر المحيط في التفسير: أثير الدين محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. عبد الرزاق المهدي، دار أحياء التراث العربي بيروت – لبنان ط١، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م

٨ – التحرير والتنوير ١٥/٨٠.

٩ – المصدر السابق ١٥/٨٠.

١٠ – المصدر السابق ١٥/٨٠.

١١ – المصدر السابق ١٥/٨٠.

١٢ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، خرج آياته وأحاديثه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط٣، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ، ج٤/ ٤٧٤.

١٣ – صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت ط٣، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م، ج٣/ ١٢٢٦.

١٤ – التحرير والتنوير ج٢٦/١٥٨.

١٥ – جامع البيان عن تأويل القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ضبط وتعليق محمود شاكر الحرستاني، دار أحياء التراث الإسلامي بيروت – لبنان ط١، ج٢٦/١١١

١٦ – ينظر: جامع البيان عن تأويل القرآن ج٢٦/١١١، والبحر المحيط: ج٨/١٤٠.

١٧ – ينظر: التحرير والتنوير ج٢٦ /ص ١٥٧– ١٥٨.

١٨ – ينظر: المصدر السابق ج٢٦/ ص١٥٨.

١٩ – ينظر: المصد السابق ج٢٦/ ص١٥٨.

٢٠ – ينظر: المصدر السابق ج٢٦ /ص ١٦٣، بتصرف يسير

٢١ – نجد في بعض الأحيان يكون تعدد أوجه الإعراب وما ينتج من اختلاف في المعنى ولا سيّما في النص القرآني وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، يقول الدكتور محمد حماسة "وقد اختلف النحاة في توجيه كثير من الجمل القرآنية، وعاب بعض المحدثين عليهم هذا الاختلاف، ولكن النحاة كانوا يحاولون بتوجيهاتهم المختلفة أن يقدموا عدة احتمالات للغة العليا التي تفتقد إلى ملابسات الحال أو الموقف اللغوي في حال النطق، فتعدد الأوجه الإعرابية في هذا الحال لا يمكن أن يعد دليلًا على عدم أهمية الإعراب أو على الترخص في العلامة الإعرابية، ولكنه تفسيرٌ للغة المكتوبة، وإسباغ مواقف ملائمة لكل حالة أو وجه من الوجوه ، وتعدد أوجه الإعراب بهذا الفهم ضربٌ من ضروب إعجاز القرآن ودليلٌ على ثراء نصه وخصوبة عطائه وتعدد إشعاعه بحيث تبدو الجملة القرآنية كالماسّة المشعة أنّى استقبلتها

ألقت عليك بأضواء" ينظر فتنة النص (بحوث ودراسات نصية) ، د. محمد حماسة عبد اللطيف دار غريب – القاهرة ٢٠٠٧م، ص١٧٧.

٢٢ – ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت٧٠٨هـ)، تحقيق: د سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط٢ ١٤٣١هـ /١٦٦.

٢٣ – مفاتيح الغيب : فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٤)، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط٣، ٢٠٠٩م ج٢٨ /٨٥ بتصرف يسير.

٢٤ – البحر المحيط ج٨ /ص ١٤٠.

٢٥ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٧/ ٢٠٧.

٢٦ – التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبدالله بن الحسن العكبري ت(٦١٦)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث بيروت – لبنان ١٩٧٦م، ج١/ص٣٩.

٢٧ – البحر المحيط ج٤/٦١٥.

٢٨ – المصدر السابق، ج٤/٦١٥.

٢٩ – التحرير والتنوير، ج ٩/٧٨.

٣٠ – مفاتيح الغيب، ج١٥/١٢٢، والبحر المحيط ج٤/٦١٥.

٣١ – التحرير والتنوير ج٩/٧٨، وينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم ج٤/٢٢.

٣٢ – وفي تتمة الرواية ، أن أبا لبابة حلف لا يذوق ذواقًا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشيًا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله.

وقد ذكر أبن كثير في سبب نزولها ثلاث روايات، رواية أبي لبابة هذه، ورواية أنَّ رجلًا من المنافقين كتب إلى أبي سفيان يخبره بقدوم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ثم قال أبن كثير "في سنده وسياقه نظر" والنظر في السياق هو لفظ المنافقين الوارد في الرواية، فهي تخالف

صريح القرآن الكريم من كون الآية نزلت في المسلمين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا﴾، فقد ذكر أنهم من المؤمنين، ولفظ الرواية أنه من المنافقين.

أما الرواية الثالثة: أنها نزلت في قصة "حاطب بن أبي بلتعة".

والذي أراه في هذا السياق أنَّ القرائن السياقية تشهد بصحة رواية أبي لبابة، وإلى هذا ذهب الطاهر بن عاشور وجمع من المفسرين ينظر: تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت(٧٧٤)، تحقيق: أبو معاوية مازن بن عبد الرحمن البحصلي، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ج٢/٤١٢، والتحرير والتنوير ج٩/٧٦.

٣٣ - ينظر: مفاتيح الغيب ج١٥/ص١٢٢.

٣٤ - ينظر: التحرير والتنوير ج٩/ص ٧٨- ٧٩ بتصرف يسير.

٣٥ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل ، ج١/ص١٠٢.

٣٦ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي ج١/٢٥٨.

٣٧ - التحرير والتنوير ج١/ص٣٢٩.

٣٨ - ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم ج١/ص٨٢.

٣٩ - وكذا القول في قوله تعالى ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة :١٨٨]، وقوله تعالى ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ**﴾[النمل:٥٤]، قال الطاهر بن عاشور في آية سورة البقرة:" حال مؤكدة لأن المدلي بالأموال للحكام ليأكل أموال الناس عالم لا محالة بصنعه، فالمراد من هذه الحال تشنيع الأمر وتفظيعه إعلانًا بأن أكل المال بهذه الكيفية هو من الذين أكلوا أموال الناس عن علم وعمد فجرمه أشد"، ينظر التحرير والتوير ج٢/ص١٩٠.

٤٠ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج٣/٢١.

٤١ – مفاتيح الغيب ج١٤/٤٥.

٤٢ – التحرير والتنوير ج٨/٦٠.

٤٣ – مفاتيح الغيب ج١٤/٤٥.

٤٤ – روح المعاني ٨/٤٨١.

٤٥ – التحرير والتنوير ج٨/٦١.

٤٦ – التحرير والتنوير ٢٥/١٨٤.

٤٧ – ينظر نظم الدرر ٦/٦٤٤، بتصرف يسير.

٤٨ – التحرير والتنوير ٢٥/١٨٤.

٤٩ – ينظر التحرير والتنوير ٢١/٢١٨.

٥٠ – التحرير والتنوير ٢٦/١٠٠.

٥١ – ينظر: نظم الدرر ٧/١٧٣.

٥٢ – المصدر السابق ٧/ ١٧٢.

٥٣ – ينظر: التحرير والتنوير ١٣/١٠٧.

٥٤ – ينظر: الطاهر بن عاشور ج١٣/ ١٠٥ بتصرف.

٥٥ – ينظر: مفاتيح الغيب ٢٠/١٦.

٥٦ – ينظر: التحرير والتنوير١٣/١٠٦.

٥٧ – ينظر: مفاتيح الغيب ٢٠/١٦، والبحر المحيط ٥/٦٢٠.

٥٨ – ينظر: مفاتيح الغيب ٢٠/١٦، ونظم الدرر ٤/٢٥٩.

٥٩ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ١٢٢.

٦٠ – روح المعاني ١٤/ ٤٩٠.

٦١ – التحرير والتنوير ٢٦/٤٣.

المصادر

- أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن حجر العسقلاني: أحمد مصطفى أحمد الأسطل، رسالة ماجستير ، الجامعة الاسلامية غزة، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم، أبو السعود محمد بن محمد العَمادي (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
- الإيضاح في علم البلاغة، الخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، تحقيق: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت – لبنان ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م،
- البحر المحيط، أثير الدين محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥)، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
- البرهان في تناسب سور القرآن ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت٧٠٨هـ)، تحقيق: د . سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبدالله بن الحسن العكبري ت(٦١٦)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الشام للتراث بيروت – لبنان ١٩٧٦م،
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ت(١٩٧٣)م، مؤسسة التاريخ العربي بيروت – لبنان، الطبعة الأولى
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت(٧٧٤)، تحقيق: أبو معاوية مازن بن عبد الرحمن البحصلي، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م،
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٢١١هـ)، دار إحياء التراث بيروت – لبنان، الطبعة الأولى

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث بيروت – لبنان
- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت ط٣، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧
- علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم: د. حسن طبل، مكتبة الإيمان، المنصورة ط٣ ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م،
- فتنة النص (بحوث ودراسات نصية) : د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب – القاهرة ٢٠٠٧م
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت (٥٣٨) دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة ٢٠٠٩م مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ت (٦٠٤)،دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة،.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث د نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان ١٩٨٠م،
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين بن عمر البِقَاعي (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م.